مداخلة نظرية

المنتديات مجال حيوي للتغيير الاجتماعي ومناخ لتعددية الأصوات

وسيم الكردي

(0)

هل يكفي أن أكون متحمساً لتجربة المنتديات لأنْ أقولَ فيها كلاماً في لقاء يجمعُ المبادرين إليها والفاعلين فيها من معلمين ومعلمات؟ وهل يكفي كتبرير لأن أكون على المنصة الآن للقول إنني عايشت التجربة من لحظات ولادتها الأولى إلى لحظتها الراهنة؟ بالتأكيد لا، فالحماسة وحدها غير كافية والمعايشة ربما غير كافية أيضاً. إذن، لماذا زجُّ الأنف في فعل من الأجدى أن يشرع بالحديث عنه وفيه وله من هم أَولى بذلك، معلمو ومعلمات المنتديات أنفسهم؟!

إنها الرغبة في الحوار، ليس ذلك من موقع المؤسسة التي أعمل فيها، أو من موقع المسؤولية الوظيفية، أو من موقع من كان معلماً لخمسة عشر عاماً، بل من موقع الفعل الاجتماعي والممارسة المجتمعية، وبخاصة بما له من آثار على ما يجري داخل المدرسة وخارجها في تجلياتها الثقافية. وفي اعتقادي أن كلمة "حوار" وبكل معناها البسيط ومعانيها المركبة ودلالاتها المختلفة، هي جوهر ما أرمي إليه، ليس فقط من وراء هذه المداخلة، ولكن من وراء كل فكرة التفاعل ما بين المعلمين أنفسهم. إنها الرغبة في الحوار، الحوار بمعنى الانخراط ليس في تفسير التجربة نفسها بما هي عليه فحسب، بل في تفسير التجربة بما يمكن أن تكون عليه أيضاً.

(1)

إن فعل المنتديات هو فعل اجتماعي حواري بامتياز، من حيث هو اجتماع وتجمع وتجميع، يتخلق في ضوء الرغبة، ويتنامى في ضوء الحاجة، ويتصاعد في ضوء الأمنية؛ اجتماع المتنوع والمختلف، تجمع القوة والتأثير، وتجميع يتيح توسيع دائرتي المختلف والمتنوع، وبالضرورة القوة والتأثير.

(2)

ويغدو هذا الفعلُ الاجتماعي ظاهرةً تتشكل في سياق بالغ القساوة، سياق يبدو مثبطاً للعزيمة، شاقاً، يتضارب مع شروط الحياة الإنسانية في أبسط صورها: الحرية والحياة الكريمة . . . ومع ذلك، فإن ظاهرة المنتديات تبدو ملفتة، لأنها تتراءى عبر من يوغل في قهرهم على مستوى الحياة وعلى مستوى الوظيفة أيضاً. ولكن لكل فعل يتغيا التغيير مجترحاته، وهي كامنة في ثنايا المعلمين وفي خلاياهم، وفي تلك المناطق المأهولة منهم بالحس العام.

(3)

تتشكل ظاهرة المنتديات في زمن تراجعَ فيه كثيراً الاكتراثُ بالشأن العام، فما نراه، إما انسحاباً إلى الذات وتأدية الدور الاجتماعي في حدوده الدنيا، وإما الانخراط في عصبوية سياسية قبَلية الملامح والتطلعات. وفي زمن كهذا بالذات، وفي إثر هذا الانسحابات نحو ذات تأكلُ ذاتها، وبين جماعات لا ترى سوى ذاتها، وتلقن المجتمع دروساً فيما يجب أن يكون عليه وفقاً لإرادتها القبلية تتبدى مبادرات هنا وهناك في المجتمع الفلسطيني، مبادرات تبدو سائرة في عكس التيار العام، ومنها مبادرات المعلمين والمعلمات في إنشاء منتديات لهم، وتقفز من مجرد تأدية للدور الاجتماعي في حدوده الدنيا.

(4)

فما هو المختلف في ذلك؟ وما الذي تحمله هذه الأنوية من إشارات؟ إنها مبادرات طوعية في زمن بات الفعل الطوعي في المجتمع في حالة الذبول والتلاشي. مبادراتٌ تقوم على التنوع في اهتماماتها وتطلعاتها، وليست محصورة في تخصص أو موضوع أو مسار. مبادرات تنادى للفعل فيها أشخاص من ميول واتجاهات فكرية وثقافية متنوعة، مبادرات تتجاور فيها تطلعات متنوعة ورغبات مختلفة، مبادرات تتشكل وفق معطيات اختارها أعضاؤها، ولا تتشكل وفق مشيئة عليا أو نمط أو نموذج. ولذلك، فإن ذلك يعني بأنها مبادراتٌ تحتفي بالشأن العام في ضوء

التنوع والاختلاف، وتشتغل على فعلها في السياق المدرسي في ضوء فعلها في السياق الاجتماعي. إذن، فهي تشكّل أنوية للقوة والتأثير، لأنها تحبك اشتباكات وتشابكات ما بين المختلف والمتنوع، بمعنى أنها، في جوهرها، تؤسسٌ للحوار.

(5)

وأي تغيير اجتماعي لا تحققه الأفكار النبيلة والقيم الجميلة من حيث هي نبيلة وجميلة، إنه بحاجة إلى تحويل هذه الأفكار والقيم إلى فعل في المجتمع، إنه بحاجة إلى انخراط في النشاط الاجتماعي بصورتيه الفردية والجمعية، إنه يحتاج إلى قوة الجماعة. الجماعة المنبثقة من النسيج الاجتماعي، والراجعة إليه.

(6)

المعلم، أي معلم، هو فاعل اجتماعي، ولأنه كذلك، فهو منخرط في عملية اجتماعية حيوية؛ سواء أكان عبر ما يقوم به داخل جدران المدرسة أو خارجها . . . فأن تكون معلماً موظفاً لن يمنحك بمجرد إشغالك الوظيفة أو اكتسابك صفة الأستاذ سمة الفاعل الاجتماعي التنويري، فهي بذاتها، أقصد شغل الوظيفة أو صفة المعلم، وإنْ بدتْ ذاتَ منزلة ترتفع وتنخفض باختلاف واقعها الاجتماعي، ونظرته إليها من حين لحين، تحقق سماتها وفي كل أحوالها بانخراطها في سياق، يقوم الفاعل فيها بفعله عبر دوافع ومشتغل عبر محددات وذاهب نحو غايات . . . ولأن المعلمين ليسوا كتلة واحدة أو نسيجاً واحداً، فإننا نفرق بينهم، ونرى هذا غير ذاك. فطبيعة انخراطي كإنسان في الفعل الاجتماعي بمعناه الكلي هو جوهر فعلي كمعلم في الفعل المدرسي. ولهذه العلاقة ما بين المدرسي والمجتمعي قوى مؤثرة وعميقة، فهي قد تشتغل على العزل أو تشتغل على الوصل. وفي كلتا الحالتين فهو اشتغال على العزل والوصل في الآن نفسه. وهذا قد يكون فعلاً في الحرية أو فعلاً في القهر. وهو يحتاج إلى إرادة، فأن تكون في وضعية المقهور لا يحقق بصورة آلية الوعي بالانعتاق، لأنه في كثير من الأحيان يجري استدخال القهر وتذويته، وهذا القهر له مستويات ابتداء من قهر مادي ونفسي إلى قهر ثقافي وسلوكي، قد ينشأ عن قوى من خارج المجتمع، وقد ينشأ عن قوى من داخله. وقهر القهر يقتضي القوة، سواء أكانت معنوية أم مادية أم كلتيهما، وفي كل الأحوال فإن الاستنارة والتنور والتنوير شروط أساسية للانعتاق.

(7)

إن واحدة من أهم القضايا التي يتوجب على المجتمع الذي نعيش فيه هي قضية الانعتاق والحرية، فإن على فعلنا في السياق المدرسي أن يشتغل على فعل الانعتاق والحرية. وما تؤشر له "المنتديات" أنها فعل في هذا السياق، دون أن نحمّلها أكثر من طاقتها على الاحتمال، يحتاج إلى المراكمة والتطوير، وأن يبقى مشتغلاً على إتاحة مناخات الحوار وتفاعل التجارب وتلاقح الخبرات وتجاور المختلفات. . . لأن أخطار التراخي أو الانغلاق كثيرة المغويات، ويمكن للصعوبات أن تغدو حائلاً بينها وبين ما يُتطلع إليه؛ ففعل المنتديات هو فعل تجاوزي بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ تجاوزي لانسحاب الذات إلى فعلها المغلف في حجرة صف، تجاوزي للراهن والمألوف، تجاوزي للحالة الراهنة، تجاوزي للمؤسسة الراكدة، تجاوزي للأمكنة المعتادة، تجاوزي للصوت الواحد . . . .

(8)

إن الآلة التي هي النظام التربوي ومن فوقه النظام الاجتماعي برمته، تشتغل على جعل المعلم أداة ضمن أدوات يشتغل عبرها النظام وبصورة ميكانيكية، وهو نظام يشتغل على تفريغ من يشتغلون في داخل النظام من وجودهم كبشر إلى مجرد أدوات ووسطاء. وبهذا المعنى، فإن المنتديات تأتي كاختراق لهذا النظام، لأنها تؤسس للتحاور ما بين الأفراد والمجموعات، وهذا كافٍ ليعيد الاعتبار للفرد والمجموعة؛ من حيث هو إنسان ومن حيث هي بشر. هنا يغدو التفاعل ما بين بشر يحملون تواريخ بشرية، لها حياة وفيها حيوية، لها رغبات ولديها تطلعات. وهذا سيفضي إلى اختراق النظام وإعادة إنتاج المعنى الاجتماعي الإنساني الذي يحمل بذور التوق إلى التحرر والتطور والارتقاء.

(9)

وفي ضوء ذلك كله، فإنني أرى في تجربة المنتديات فعلاً، في جوهره هو فعل ثقافي، كلما انفتح على المجتمع بكل مكوناته وعناصره، واشتغل على التفاعل، فإنه سيكون فعلاً قادراً على إحداث التغيير في الذات، وفي الجماعة، ومن ثم في المجتمع.

(10)

فما يريده المجتمع، أي مجتمع، من المدرسة ترده له، ما أود قوله هنا إن المدرسة كما هي متجلية لا تلعب دوراً ريادياً في تحولات المجتمع بل هي تستجيب للعبة القوة فيه، وتنخرط بمعظم أفعالها لما يُشاء لها ضمن النظم والسياسات والقيم المجتمعية، فهي بصورة تكاد تكون تامة مرآة للسائد في المجتمع، فهل نريد مدرسة هي صورة مرأوية لما هو عليه المجتمع؟ إن هذا صحيح بنسبة كبيرة، فلأن المدرسة واحدة من المؤسسات التي ينتجها النظام الاجتماعي، فهي دون شك تشتغل على تلبية رغباته وتطلعاته، ويبدو صعباً إحداث تغيير في المدرسة إن لم تشأ الأنظمة الاجتماعية السائدة وقواها السياسية.

(11)

فالاشتغال خارج جدران المدرسة هو في غاية الأهمية للتأثير ولإحداث اشتغال نوعي داخل المدرسة، ولن تكون الجدران حائلاً، فلا تمرر سوى ما تشاء بعين الرقابة، وحين يحدث ذلك الانشغال الاجتماعي بما يجري داخل النظام التربوي، فإن ممكنات التغيير ستبدو ممكنة، ودون ذلك ستبقى المدرسة مفرخة تفرِّخ للمجتمع ما يريده منها كمؤسسة مدجنة، وليس كمؤسسة يمكن أن تحتمل في داخلها فسحة للحرية ومساحة للاشتباك، ومجالاً للحوار. ودعوني اختتم كلمتي بكلام للروائي اليوناني كازنتزاكي:

"لا ينبغي البدء من المدرسة، بل من أسس المجتمع نفسه الذي لا ينبثق من المدرسة. ومن أجل مساعدة المجتمع على التقدم، لا بد من العزم على قطع جذوره المتعفنة، وتحرير الناس من العراقيل التي تمنعهم من النمو" (كازنتزاكي، 1994: 91).

المرجع

- كازنتزاكي، إيليني (1994). **المنشق – نيكوس كازنتزاكي**. ت: محمد علي اليوسفي. بيروت: دار الآداب.